بَابٌ
الشَّفَاعَةُ

.....

ذكر المؤلف رحمه الله الشفاعة في كتاب التوحيد؛ لأنَّ المشركين الذين يعبدون الأصنام يقولون: إنَّها شفعاء لهم عند الله، وهم يشركون بالله ـ سبحانه وتعالى ـ فيها بالدعاء والاستغاثة وما أشبه ذٰلك. وهم بذٰلك يظنُّون أنَّهم معظمون لله، ولٰكنهم منتقصون له؛ لأنَّه عليم بكل شيء، وله الحكم التَّام المطلق والقدرة التامة؛ فلا يحتاج إلى شفعاء. ويقولون: إننا نعبدهم ليكونوا شفعاء لنا عند الله، فيقربونا إلى الله، وهم ضالون في ذلك؛ فهو سبحانه عليم وقدير وذو سلطان، ومن كان كذٰلك؛ فإنَّه لا يحتاج إلى شفعاء.

والملوك في الدنيا يحتاجون إلى شفعاء؛ إما لقصور علمهم، أو لنقص قدرتهم؛ فيساعدهم الشفعاء في ذٰلك، أو لقصور سلطانهم؛ فيتجرَّأ عليهم الشفعاء، فيشفعون بدون استئذان، ولٰكن الله ـ عز وجل ـ كامل العلم والقدرة والسلطان، فلا يحتاج لأحد أن يشفع عنده، ولهٰذا لا تكون الشفاعة عنده سبحانه إلا بإذنه لكمال سلطانه وعظمته.

ثم الشفاعة لا يُراد بها معونة الله ـ سبحانه ـ في شيء مما شُفع فيه؛ فهٰذا ممتنع كما سيأتي في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]، ولٰكن يُقصد بها أمران، هما:

(١) يأتي (ص٣٤٠).

وَقَوْلُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾[1].

١ ـ إكرام الشافع.

٢ ـ نفع المشفوع له.

والشفاعة لغة: اسم من شفع يشفع، إذا جعل الشيء اثنين، والشَّفْع ضد الوتر، قال تعالى: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ [الفجر: ٣]. واصطلاحًا: التوسُّط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرَّة.

مثال جلب المنفعة: شفاعة النبي ﷺ لأهل الجنَّة بدخولها[2].

مثال دفع المضرَّة: شفاعة النبي ﷺ لمن استحق النار أن لا يدخلها.

* * *

وذكر المؤلف رحمه الله في هٰذا الباب عدة آيات:

● **الآية الأولى: قوله تعالى**: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾: الإنذار: هو الإعلام المتضمن للتخويف، أمَّا مجرد الخبر؛ فليس بإنذار، والخطاب للنبي ﷺ.

والضمير في ﴿به﴾ يعود للقرآن؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]، وقال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢].

وقوله: ﴿يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ﴾: أي: يخافون مما يقع لهم من سوء

(١) سورة الأنعام: الآية ٥١.

(٢) يأتي (ص٣٣٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾[1].

العذاب في ذٰلك الحشر. والحشر: الجمع، وقد ضُمّن هنا معنى الضم والانتهاء؛ فمعنى يحشرون؛ أي: يجمعون حتى ينتهوا إلى الله.

قوله: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾: ﴿ولي﴾؛ أي: ناصر ينصرهم.

﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾؛ أي: شافع يتوسَّط لهم، وهٰذا محل الشاهد. ففي هٰذه الآية نفي الشفاعة من دون الله، أي من دون إذنه، ومفهومها: أنها ثابتة بإذنه، وهٰذا هو المقصود؛ الشفاعة من دونه مستحيلة، وبإذنه جائزة وممكنة. أما عند الملوك؛ فجائزة بإذنهم وبغير إذنهم، فيمكن لمن كان قريبًا من السلطان أن يشفع بدون أن يستأذن. ويفيد قوله: ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ أن لهم بإذنه وليًّا وشفيعًا؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [المائدة: ٥٥].

● **الآية الثانية: قوله تعالى:** ﴿لِلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾: مبتدأ وخبر، وقُدِّم الخبر للحصر، والمعنى: لله وحده الشفاعة كلها، لا يوجد شيء منها خارج عن إذن الله وإرادته؛ فأفادت الآية في قوله: ﴿جَمِيعًا﴾ أن هناك أنواعًا للشفاعة.

وقد قسَّم أهل العلم رحمهم الله الشفاعة إلى قسمين رئيسيين، هما:

القسم الأول: الشفاعة الخاصَّة بالرسول ﷺ، وهي أنواع:

النوع الأول: الشفاعة العظمى، وهي من المقام المحمود الذي وعده الله؛ فإنَّ الناس يلحقهم يوم القيامة في ذٰلك الموقف العظيم من الغمِّ والكرب ما لا يطيقونه، فيقول بعضهم لبعض: اطلبوا من يشفع لنا عند الله، فيذهبون إلى آدم أبي البشر، فيذكرون من أوصافه التي ميَّزه الله

(١) سورة الزمر: الآية ٤٤.

.....

بها: أن الله خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وعلَّمه أسماء كل شيء، فيقولون: اشفع لنا عند ربِّك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟! فيعتذر لأنَّه عصى الله بأكله من الشجرة، ومعلوم أنَّ الشافع إذا كان عنده شيء يخدش كرامته عند المشفوع إليه؛ فإنَّه لا يشفع لخجله من ذٰلك، مع أن آدم عليه السلام قد تاب الله عليه واجتباه وهداه، قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢]، لٰكن لقوة حيائه من الله اعتذر.

ثم يذهبون إلى نوح، ويذكرون من أوصافه التي امتاز بها بأنه أول رسول أرسله الله إلى الأرض، فيعتذر بأنَّه سأل الله ما ليس له به علم حين قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥]. ثم يذهبون إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فيذكرون من صفاته، ثم يعتذر بأنه كذب ثلاث كذبات لٰكنها حق حسب مراده. ثم يذهبون إلى موسى ﷺ، فيذكرون من أوصافه ما يقتضي أن يشفع، لٰكنه يعتذر بقتل نفس لم يؤمر بقتلها، وهي نفس القبطي حين استغاثه الإسرائيلي فوكز موسى القبطي فقتله فقضى عليه. ثم يذهبون إلى عيسى عليه الصلاة والسلام، فيذكرون من أوصافه ما يقتضي أن يشفع؛ فلا يعتذر بشيء، لٰكن يحيل إلى من هو أعلى مقامًا، فيقول: اذهبوا إلى محمد، عبد غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخَّر، فيحيلهم إلى محمد ﷺ دون أن يذكر عذرًا يحول بينه وبين الشفاعة[1]، فيأتون محمدًا ﷺ، فيشفع إلى الله ليريح أهل الموقف.

(١) حديث الشفاعة من حديث أبي هريرة، رواه: البخاري (كتاب التفسير، باب ﴿ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدًا شكورًا﴾، ٣/ ٢٥٠)، ومسلم (كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة، ١/ ١٨٤).

.....

الثاني: شفاعته في أهل الجنة أن يدخلوها[١]؛ لأنهم إذا عبروا الصراط ووصلوا إليها وجدوها مغلقة، فيطلبون من يشفع لهم، فيشفع النبي ﷺ إلى الله في فتح أبواب الجنة لأهلها، ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]؛ فقال: ﴿وَفُتِحَتْ﴾؛ فهناك شيء محذوف، أي: وحصل ما حصل من الشفاعة، وفتحت الأبواب، أمَّا النار؛ فقال فيها: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا . . .﴾ [الزمر: ٧١] الآية.

الثالث: شفاعته ﷺ في عمه أبي طالب أن يُخفّف عنه العذاب[٢]، وهٰذه مستثناة من قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩]، وذٰلك لما كان لأبي طالب من نصرة للنبي ﷺ ودفاع عنه، وهو لم يخرج من النار، لٰكن خفف عنه حتى صار ـ والعياذ بالله ـ في ضحضاح من نار، وعليه نعلان منها يغلي منهما دماغه، وهٰذه الشفاعة خاصة بالرسول ﷺ، لا أحد يشفع في كافر أبدًا إلا النبي ﷺ، ومع ذٰلك لم تقبل الشفاعة كاملة، وإنما هي تخفيف فقط.

القسم الثاني: الشفاعة العامة له ﷺ ولجميع المؤمنين. وهي أنواع:

النوع الأول: الشفاعة فيمن استحق النار أن لا يدخلها، وهٰذه قد

---

(١) ورد التصريح بهٰذه الشفاعة في حديث الصور، رواه: الطبراني في «المطولات» (٢٥/٦٦/ رقم ٣٦)، وابن جرير في «الجامع» (٢/ ٣٣٠).
وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٣٩)، ونسبه إلى أبي يعلى وابن المنذر وغيرهم وضعفه ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ١٤٦) وفي «صحيح مسلم» من حديث أنس: «أنا أول شفيع في الجنة» (رقم ١٩٦).

(٢) من حديث العباس بن عبد المطلب، رواه: البخاري (كتاب الفضائل، باب قصة أبي طالب، ٣/ ٦٢)، ومسلم (كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، ١/ ١٩٤).

.....

يستدلّ لها بقول الرسول ﷺ: «**ما من مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئًا؛ إلاّ شفعهم الله فيه**»[١]؛ فإنَّ هٰذه شفاعة قبل أن يدخل النار، فيشفعهم الله في ذٰلك.

النوع الثاني: الشفاعة فيمن دخل النار أن يخرج منها، وقد تواترت بها الأحاديث وأجمعت عليها الصحابة، واتَّفق عليها أهل الملة ما عدا طائفتين، وهما: المعتزلة والخوارج؛ فإنَّهم ينكرون الشفاعة في أهل المعاصي مطلقًا لأنَّهم يرون أنَّ فاعل الكبيرة مخلَّد في النار، ومن استحق الخلود؛ فلا تنفع فيه الشفاعة، فهم ينكرون أن النبي ﷺ أو غيره يشفع في أهل الكبائر أن لا يدخلوا النار، أو إذا دخلوها أن يخرجوا منها، لٰكن قولهم هٰذا باطل بالنص والإِجماع.

النوع الثالث: الشفاعة في رفع درجات المؤمنين، وهٰذه تؤخذ من دعاء المؤمنين بعضهم لبعض كما قال ﷺ في أبي سلمة: «**اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين، وأفسح له في قبره، ونوِّر له فيه، واخلفه في عقبه**»[٢]، والدعاء شفاعة؛ كما قال ﷺ: «**ما من مسلم يموت، فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يُشركون بالله شيئًا؛ إلا شفَّعهم الله فيه**»[٣].

*** إشكال وجوابه:**

فإن قيل: إن الشفاعة لا تكون إلاّ بإذنه سبحانه؛ فكيف يسمى دعاء الإِنسان لأخيه شفاعة وهو لم يستأذن من ربه؟

---

(١)(٣) من حديث ابن عباس، رواه: مسلم (كتاب الجنائز، باب من صلى عليه أربعون، ٢/ ٦٥٥).

(٢) من حديث أم سلمة، رواه: مسلم (كتاب الجنائز، باب في إغماض الميت، ٢/ ٦٣٤).

وَقَوْلُهُ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[١].

والجواب: إنَّ الله أَمَرَ بأن يدعو الإنسان لأخيه الميت، وأَمْرُه بالدعاء إذنٌ وزيادة.

وأما الشفاعة الموهومة التي يظنّها عبَّاد الأصنام من معبوديهم؛ فهي شفاعة باطلة لأنَّ الله لا يأذن لأحد بالشفاعة إلاّ من ارتضاه من الشفعاء والمشفوع لهم.

إذًا قوله: ﴿لِلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ تفيد أنَّ الشفاعة متعددة كما سبق[٢].

* * *

● **الآية الثالثة: قوله تعالى:** ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى﴾: ﴿من﴾: اسم استفهام بمعنى النفي؛ أي: لا يشفع أحد عند الله إلاّ بإذنه. ﴿ذا﴾: هل تجعل ذا اسمًا موصولاً كما قال ابن مالك في «الألفية». أو لا تصح أن تكون اسمًا موصولاً هنا لوجود الاسم الموصول ﴿الذي﴾؟ الثاني هو الأقرب، وإن كان بعض المعربين قال: يجوز أن تكون ﴿الذي﴾ توكيدًا لها.

والصحيح أن ﴿ذا﴾ هنا إما مركبة مع ﴿من﴾، أو زائدة للتوكيد، وأيًا كان الإعراب؛ فالمعنى: إنَّه لا أحد يشفع عند الله إلاّ بإذن الله.

وسبق أنَّ النفي إذا جاء في سياق الاستفهام؛ فإنَّه يكون مضمنًا معنى التحدي، أي إذا كان أحد يشفع بغير إذن الله فأت به.

قوله: ﴿عِندَهُۥٓ﴾: ظرف مكان، وهو سبحانه في العلو؛ فلا يشفع

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

(٢) سبق (ص٣٣١).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾[1].

أحد عنده ولو كان مقرَّبًا؛ كالملائكة المقرَّبين؛ إلاّ بإذنه الكوني، والإذن لا يكون إلاّ بعد الرضا.

وأفادت الآية: أنَّه يشترط للشفاعة إذن الله فيها لكمال سلطانه جل وعلا، فإنَّه كلَّما كمل سلطان الملك؛ فإنَّه لا أحد يتكلَّم عنده ولو كان بخير إلاّ بعد إذنه، ولذلك يعتبر اللغط في مجلس الكبير إهانةً له ودليلاً على أنَّه ليس كبيرًا في نفوس من عنده، كان الصحابة مع الرسول ﷺ كأنَّما على رؤوسهم الطير من الوقار وعدم الكلام إلاّ إذا فتح الكلام؛ فإنَّهم يتكلَّمون.

● **الآية الرابعة: قوله تعالى:** ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ كم: خبرية للتكثير، والمعنى: ما أكثر الملائكة الذين في السماء، ومع ذلك لا تغني شفاعتهم شيئًا إلاّ بعد إذن الله ورضاه.

قوله: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾: للشفاعة شرطان، هما:

١ ـ الإذن من الله؛ لقوله: ﴿أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾.

٢ ـ رضاه عن الشافع والمشفوع له؛ لقوله: ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]؛ فلا بد من إذنه تعالى ورضاه عن الشافع والمشفوع له إلاّ في التخفيف عن أبي طالب، وقد سبق ذلك[2].

وهٰذه الآية في سياق بيان بطلان ألوهية اللات والعزى، قال تعالى

(١) سورة النجم: الآية ٢٦.

(٢) (ص٣٣٣).

وَقَوْلُهُ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآيتين[1].

بعد ذكر المعراج وما حصل للنبي ﷺ فيه: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨] أي: العلامات الدالة عليه عز وجل، فكيف به سبحانه؟! فهو أكبر وأعظم.

ثم قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩ ـ ٢٠] وهٰذا استفهام للتحقير؛ فبعد أن ذكر الله هٰذه العظمة قال: أخبروني عن هٰذه اللات والعزى ما عظمتها؟ وهٰذا غاية في التحقير، ثم قال: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَم مِّن مَّلَكٍ...﴾ الآية [النجم: ٢١ ـ ٢٦].

فإذا كانت الملائكة وهي في السماوات في العلو لا تغني شفاعتهم إلاّ بعد إذنه تعالى ورضاه؛ فكيف باللاّت والعزى وهي في الأرض؟! ولٰهذا قال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، مع أنَّ الملائكة تكون في السماوات وفي الأرض، ولٰكن أراد الملائكة التي في السماوات العلى، وهي عند الله ـ سبحانه ـ؛ فحتى الملائكة المقرَّبون حملة العرش لا تغني شفاعتهم إلاّ من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى.

* * *

● **الآية الخامسة: قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟﴾**: الأمر في قوله: ﴿ٱدْعُوا۟﴾ للتحدي والتعجيز، وقوله: ﴿ٱدْعُوا۟﴾ يحتمل معنيين، هما:

---

(١) سورة سبأ: الآية ٢٢.

.....

١ ـ أحضروهم.

٢ ـ ادعوهم دعاء مسألة.

فلو دعوهم دعاء مسألة لا يستجيبون لهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

يكفرون: يتبرؤون، ومع هٰذه الآيات العظيمة يذهب بعض الناس يشرك بالله ويستنجد بغير الله، وكذٰلك لو دعوهم دعاء حضور لم يحضروا، ولو حضروا ما انتفعوا بحضورهم.

قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾: واحدة الذر: وهي صغار النمل، ويضرب بها المثل في القلّة.

قوله: ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾، وكذٰلك ما دون الذرَّة لا يملكونه، والمقصود بذكر الذرَّة المبالغة، وإذا قُصد المبالغة بالشيء قلّة أو كثرة؛ فلا مفهوم له؛ فالمراد الحكم العام؛ فمثلاً قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]؛ أي: مهما بالغت في الاستغفار.

ولا يرد على هٰذا أن الله أثبت مُلْكًا للإنسان؛ لأنَّ ملك الإنسان قاصر وغير شامل ومتجدّد وزائل، وليس كملك الله.

قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾: أي: ما لهٰؤلاء الذين تدعون من دون الله.

﴿فِيهِمَا﴾؛ أي: في السماوات والأرض.

﴿مِن شِرْكٍ﴾؛ أي: مشاركة، أي لا يملكونه انفرادًا ولا مشاركة.

.....

وقوله: ﴿مِن شِرْكٍ﴾: مبتدأ مؤخَّر دخلت عليه ﴿من﴾ الزائدة لفظًا، لٰكنها للتوكيد معنى. وكل زيادة لفظية في القرآن؛ فهي زيادة في المعنى. وأتت ﴿من﴾ للمبالغة في النفي، وأنّه ليس هناك شرك لا قليل ولا كثير.

قوله: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾: الضمير في ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ يعود إلى الله تعالى، وفي ﴿منهم﴾ يعود إلى الأصنام؛ أي: ما لله تعالى من هٰذه الأصنام ظهير. و ﴿من﴾: حرف جر زائد، و ﴿ظَهِيرٍ﴾: مبتدأ مؤخر بمعنى مُعين؛ كما قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]؛ أي: معينًا، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]؛ أي: معين. أي: ليس لله معين يعينه في أفعاله، وبذٰلك ينتفي عن هٰذه الأصنام كل ما يتعلّق به العابدون؛ فهي لا تملك شيئًا على سبيل الانفراد ولا المشاركة ولا الإعانة؛ لأن من يعينك وإن كان غير شريك لك يكون له منّة عليك؛ فربما تحابيه في إعطائه ما يُريد.

فإذا انتفت هٰذه الأمور الثلاثة؛ لم يبق إلاّ الشفاعة، وقد أبطلها الله بقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]؛ فلا تنفع عند الله الشفاعة لهؤلاء؛ لأنَّ هٰذه الأصنام لا يأذن الله لها، فانقطعت كل الوسائل والأسباب للمشركين، وهٰذا من أكبر الآيات الدالة على بطلان عبادة الأصنام؛ لأنّها لا تنفع عابديها لا استقلالاً ولا مشاركةً ولا مساعدةً ولا شفاعةً؛ فتكون عبادتها باطلة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأحقاف: ٥]، حتى ولو كان المدعو عاقلاً؛ لقوله: ﴿من﴾، ولم يقل: «ما»، ثم قال تعالى: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦]، وكل

قَالَ أَبُو العَبَّاسِ: «نَفَى اللَّهُ عَمَّا سِوَاهُ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ المُشْرِكُونَ، فَنَفَى أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ مُلْكٌ أَوْ قِسْطٌ مِنْهُ، أَوْ يَكُونَ عَوْنًا لِلَّهِ، .....

هٰذه الآيات تدل على أنّه يجب على الإنسان قطع جميع تعلقاته إلا بالله عبادةً وخوفًا ورجاءً واستعانةً ومحبةً وتعظيمًا؛ حتى يكون عبدًا لله حقيقة، يكون هواه وإرادته وحبه وبغضه وولاؤه ومعاداته لله وفي الله؛ لأنَّه مخلوق للعبادة فقط، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، أي: لا نأمركم ولا ننهاكم، إذ لو خلقناكم فقط للأكل والشرب والنكاح؛ لكان ذٰلك عين العبث، ولٰكن هناك شيء وراء ذٰلك، وهو عبادة الله سبحانه في هٰذه الدنيا.

وقوله: ﴿إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾: أي: وحسبتم أنكم إلينا لا ترجعون، فنجازيكم إذا كان هٰذا هو حُسْبَانَكم؛ فهو حُسْبان باطل.

* * *

قوله: «قال أبو العباس»: هو شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية رحمه الله يُكنى بذٰلك، ولم يتزوَّج؛ لأنَّه كان مشغولاً بالعلم والجهاد، وليس زاهدًا في السنة، مات سنة ٧٢٨هـ، وله ٦٧سنة و ١٠ أشهر.

قوله: «لغيره ملك»: أي: لغير الله في قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾.

قوله: «أو قسط منه»: في قوله: **«وما لهم فيهما من شرك»**.

قوله: «أو يكون عونًا لله» في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ بدون استثناء.

وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ الشَّفَاعَةُ، فَبَيَّنَ أَنَّهَا لاَ تَنْفَعُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّبُّ؛ كَمَا قَالَ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[1].

فَهٰذِهِ الشَّفَاعَةُ الَّتِي يَظُنُّهَا الْمُشْرِكُونَ هِيَ مُنْتَفِيَةٌ يَوْمَ القِيَامَةِ؛

قوله: «ولم يبق إلاّ الشفاعة»: فبيَّن أنها لا تنفع إلاّ من أذن له الرب؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾، وقال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ومعلوم أنَّه لا يرضى هٰذه الأصنام لأنها باطلة. وحينئذٍ فتكون شفاعتها منتفية.

واعلم أنَّ شرك المشركين في السابق كان في عبادة الأصنام، أما الآن، فهو في طاعة المخلوق في المعصية؛ فإنَّ هٰؤلاء يقدِّسون زعماءهم أكثر من تقديس الله إن أقروا به، فيقال لهم: إنَّهم بشر مثلكم، خرجوا من مخرج البول والحيض، وليس لهم شرك في السماوات ولا في الأرض، ولا يملكون الشفاعة لكم عند الله، إذًا؛ فكيف تتعلَّقون بهم؟! حتى إن الواحد منهم يركع لرئيسه أو يسجد له كما يسجد لرب العالمين. والواجب علينا نحو ولاة الأمور طاعتهم، وطاعتهم من طاعة الله، وليست استقلالاً، أمَّا عبادتهم كعبادة الله؛ فهٰذه جاهلية وكفر.

فهٰذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة، كما نفاها القرآن؛ فالله ـ سبحانه وتعالى ـ نفى أن تنفعهم أصنامهم، بل قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، حتى الأصنام لا تنفع نفسها ولا يشفع لها؛ فكيف تكون شافعة؟! بل هي في النار وعابدوها.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢٨.

كَمَا نَفَاهَا القُرْآنُ، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَنَّهُ يأْتِي فَيَسْجُدُ لِرَبِّهِ وَيَحْمَدُهُ ـ لاَ يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلاً ـ ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ**»[1].

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ لَهُ ﷺ: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ؟

قوله: «**وأخبر النبي ﷺ أنّه يأتي فيسجد لربه**»: أي: وكما أخبر؛ فالواو عاطفة، ويجوز أن تكون استئنافية، فإذا كان الرسول ﷺ وهو أعظم الناس جاهًا عند الله لا يشفع إلاّ بعد أن يحمد الله ويُثني عليه، فيحمد الله بمحامد عظيمة يفتحها الله عليه لم يكن يَعْلَمها من قبل، ويطول سجوده؛ فكيف بهٰذه الأصنام؛ هل يمكن أن تشفع لأصحابها؟

قوله: «**ارفع رأسك**»: أي: من السجود.

قوله: «**وقل يسمع**» السامع هو الله، و «**يسمع**»: جواب الأمر مجزوم.

قوله: «**وسَلْ تُعْطَ**»: أي: سل ما بدا لك تعط إيَّاه، وتعطَ: مجزوم بحذف حرف العلة جوابًا لسل.

قوله: «**واشْفَع تُشفَّع**»: وحينئذٍ يشفع النبي ﷺ في الخلائق أن يُقْضَى بينهم.

قوله: «**وقال أبو هريرة له ﷺ: من أسعد الناس بشفاعتك؟**»: هٰذا السؤال من أبي هريرة للنبي ﷺ؛ فقال له النبي ﷺ: «**لقد كنت أظن أن لا يسألني أحد غيرك عنه لما أرى من حرصك على العلم**»، وفي هٰذا دليل على أن من وسائل تحصيل العلم السؤال.

---

(١) سبق (ص٣٣٢).

قَال: «مَنْ قَالَ: لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللَّهُ؛ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ»(١).

قوله: «من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه»: وعليه؛ فالمشركون ليس لهم حظٌّ من الشفاعة لأنَّهم لا يقولون: لا إله إلا الله، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٦]، وقال تعالى حكايةً عنهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأٓلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]. والحقيقة أن صنيعهم هو العجاب، قال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

وقوله: «خالصًا من قلبه» خرج بذلك من قالها نفاقًا؛ فإنّه لا حظّ له في الشفاعة، فإنَّ المنافق يقول: لا إله إلا الله، ويقول: أشهد أنَّ محمدًا رسول الله، لكن الله ـ عز وجل ـ قَابَلَ شهادتهم هذه بشهادته على كذبهم، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]؛ أي: في شهادتهم، في قولهم: إنَّك لرسول الله؛ فهم كاذبون في شهادتهم وفي قولهم: لا إله إلا الله؛ لأنَّهم لو شهدوا بذلك حقًّا ما نافقوا ولا أبطنوا الكفر.

قوله: «خالصًا»: أي: سالمًا من كل شوب؛ فلا يشوبها رياء ولا سمعة، بل هي شهادة يقين.

قوله: «من قلبه»: لأنَّ المدار على القلب، وهو ليس معنى من المعاني، بل هو مضغة في صدور الناس، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال ﷺ: «**ألا وإنّ في**

(١) من حديث أبي هريرة، رواه: البخاري (كتاب العلم، باب الحرص على الحديث، ١/ ٥٢).

فَتِلْكَ الشَّفَاعَةُ لأَهْلِ الإِخْلاَصِ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَلاَ تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ باللَّهِ.

وَحَقِيقَتُهُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهْلِ الإِخْلاَصِ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ مَنْ أُذِنَ لَهُ أَنْ يَشْفَعَ؛ .....

الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كلُّه»[1]. وبهٰذا يبطل قول من قال: إنَّ العقل في الدماغ، ولا يُنكر أنَّ للدماغ تأثيرًا في الفهم والعقل، لٰكن العقل في القلب، ولهٰذا قال الإمام أحمد: «**العقل في القلب، وله اتصال في الدماغ**». ومن قال كلمة الإخلاص خالصًا من قلبه؛ فلا بد أن يطلب هٰذا المعبود بسلوك الطرق الموصلة إليه؛ فيقوم بأمر الله ويدع نهيه.

قوله: «**فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص**»: لأنَّ من أشرك بالله قال الله فيه: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدّثّر: ٤٨].

قوله: «**وحقيقته أن الله ـ سبحانه ـ هو الذي يتفضَّل على أهل الإخلاص؛ فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع**»: وحقيقته؛ أي: حقيقة أمر الشفاعة، أي الفائدة منها: أنَّ الله ـ عز وجل ـ أراد أن يغفر للمشفوع له، ولٰكن بواسطة هٰذه الشفاعة.

والحكمة من هٰذه الواسطة بيَّنها بقوله: «**ليكرمه وينال المقام المحمود**»، ولو شاء الله لغفر لهم بلا شفاعة، ولٰكنه أراد بيان فضل هٰذا الشافع وإكرامه أمام الناس، ومن المعلوم أنَّ من قبل الله شفاعته؛ فهو عنده بمنزلة عالية؛ فيكون في هٰذا إكرام للشافع من وجهين:

الأول: إكرام الشافع بقبول شفاعته.

الثاني: ظهور جاهه وشرفه عند الله تعالى.

---

(١) من حديث النعمان بن بشير، رواه: البخاري (كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، ١/ ٣٤)، ومسلم (كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، ٣/ ١٢١٩).

لِيُكْرِمَهُ، وَيَنَالَ المَقَامَ المَحْمُودَ.

فَالشَّفَاعَةُ الَّتِي نَفَاها القُرْآنُ مَا كَانَ فِيهَا شِرْكٌ، وَلِهٰذَا أَثْبَتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذْنِهِ فِي مَوَاضِعَ. وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهَا لاَ تَكُونُ إِلاَّ لأَهْلِ الإِخْلاَصِ وَالتَّوْحِيدِ». انْتَهَى كَلاَمُهُ.

قوله: «المقام المحمود»: أي: المقام الذي يحمد عليه وأعظم الناس في ذٰلك رسول الله ﷺ؛ فإن الله وعده أن يبعثه مقامًا محمودًا، ومن المقام المحمود: أن الله يقبل شفاعته بعد أن يتراجع الأنبياء أولو العزم عنها. ومن يشفع من المؤمنين يوم القيامة؛ فله مقام يحمد عليه على قدر شفاعته.

قوله: «فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك»: هٰذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

«ما»: اسم موصول؛ أي: التي كان فيها شرك.

قوله: «وقد أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع»: ومن ذٰلك قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]، وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

قوله: «وقد بيَّن النبي ﷺ أنَّها لا تكون إلاَّ لأهل الإخلاص والتوحيد»: أمَّا أهل الشرك؛ فإنَّ الشفاعة لا تكون لهم؛ لأنَّ شفعاءهم هي الأصنام، وهي باطلة.

وجه إدخال باب الشفاعة في كتاب التوحيد: أنَّ الشفاعة الشركيَّة تنافي التوحيد، والبراءة منها هو حقيقة التوحيد.

* * *

● **فيهِ مَسائِلُ:**

الأولى: تَفْسِيرُ الآيَاتِ.

الثانية: صِفَةُ الشَّفَاعَةِ المَنْفِيَّةِ.

الثالثة: صِفَةُ الشَّفَاعَةِ المُثْبَتَةِ.

الرابعة: ذِكْرُ الشَّفَاعَةِ الكُبْرَى وَهِيَ المَقَامُ المَحْمُودُ.

الخامسة: صِفَةُ مَا يَفْعَلُهُ ﷺ أَنَّهُ لاَ يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ، بَلْ يَسْجُدُ، فَإِذَا أُذِنَ لَهُ؛ شَفَعَ.

فيه مسائل:

● **الأولى: تفسير الآيات:** وهي خمس، وسبق تفسيرها في محالها.

● **الثانية: صفة الشفاعة المنفية:** وهي ما كان فيها شرك، فكل شفاعة فيها شرك؛ فإنَّها منفية.

● **الثالثة: صفة الشفاعة المثبتة:** وهي شفاعة أهل التوحيد بشرط إذن الله تعالى ورضاه عن الشافع والمشفوع له.

● **الرابعة: ذكر الشفاعة الكبرى، وهي المقام المحمود:** وهي الشفاعة في أهل الموقف أن يُقضى بينهم، وقول الشيخ: «**وهي المقام المحمود**»؛ أي: منه[1].

● **الخامسة: صفة ما يفعله ﷺ، وأنَّه لا يبدأ بالشفاعة، بل يسجد، فإذا أذن له؛ شفع:** كما قال شيخ الإسلام رحمه الله، وهو ظاهر، وهٰذا يدل على عظمة الرب وكمال أدب النبي ﷺ.

---

(١) (ص٣٤٤).

السادسة: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِهَا؟

السابعة: أَنَّهَا لاَ تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ.

الثامنة: بَيَانُ حَقِيقَتِهَا.

● **السادسة: مَنْ أسعد الناس بها؟**: هم أهل التوحيد والإخلاص من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه. ولا إله إلا الله معناه: لا معبود حق إلا الله، وليس المعنى: لا معبود إلاّ الله؛ لأنّه لو كان كذلك؛ لكان الواقع يكذّب هٰذا، إذ إنَّ هناك معبودات من دون الله تعبد وتسمَّى آلهة، ولٰكنها باطلة، وحينئذ يتعين أن يكون المراد لا إله حق إلا الله. ولا إله إلا الله تتضمن نفيًا وإثباتًا، هٰذا هو التوحيد؛ لأنَّ الإثبات المجرَّد لا يمنع المشاركة، والنفي المجرَّد تعطيل محض، فلو قلت: لا إله معناه عطَّلت كل إله، ولو قلت: الله إله ما وحَّدت؛ لأن مثل هٰذه الصيغة لا تمنع المشاركة، ولهٰذا قال الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣] لما جاء الإثبات فقط أكده بقوله: واحد.

● **السابعة: أنّها لا تكون لمن أشرك بالله**: لقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وغير ذٰلك مما نفى الله فيه الشفاعة للمشركين، ولقوله ﷺ: «**خالصًا من قلبه**».

● **الثامنة: بيان حقيقتها**: وحقيقتها: أن الله تعالى يتفضّل على أهل الإخلاص؛ فيغفر لهم بواسطة من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود.

* * *